

الفصل الثالث

الطفل كجهاز حى سالك

أحب الآن أن أوصل وصف عجائب وغرائب تيار الوعى بأن أسأل
عما اذا كنا نستطيع بأية طريقة معقولة مفهومة أن نخصص وظائفه ونميناها .
فلتبار الوعى وظيفتان واضحتان :

فهو يؤدي الى المعرفة .

وهو يفضى الى السلوك .

هل نستطيع أن نقول أى هاتين الوظيفتين أكثر ضرورة ؟
هنا نجد تشعبا تاريخيا قديما فى الرأى .

فالاتقاد السائد جنح دائما الى تقدير قيمة العمليات العقلية للرجل
بالتقاييس الى نتائجها على حياته العملية ، ولكن الفلاسفة حرصوا دائما على
الاعتزاز بوجهة نظر مخالفة لذلك . فقد نادوا بأن « عظمة الانسان فى أسى
مراتبها هى كونه كائنا عاقلا ناطقا عارفا بالحقيقة المطلقة الخالدة السرمدية ،
ولذلك فان استخدامه لعقله فى الشؤون العملية يصبه من الأمور الثانوية » .
« فالحياة النظرية هى مناط اهتمام روحه والركيزة الأصيلة لها » .

ولا يوجد شىء أكثر اختلافا فى نتائجها بالتقاييس الى موقفنا الشخصى
من أن نتسلى الى هذا الجانب أو ذاك من وجهتى النظر هاتين بحيث نصبح
من أنصار المثل الأعلى العملى ، أو المثل الأعلى النظرى . وفى حالة الأخذ
بوجهة النظر الأخيرة — المثل الأعلى النظرى — فان التجريد من الاعمالات

والشهوات والانسحاب من غمار الكفاح في الشؤون الانسانية لا نصفح عنه ونفتقر فحسب ، ولكنه يصبح خليقا بالمدح . وكل ما يصطنع الهدوء والتأمل يعتبر موافيا للكمال الانساني في أسمى مراتبه .

أما في حالة الأخذ بوجهة النظر الأولى : المثل الأعلى العملي — فان رجل التأمل سيعامل كما لو كان نصف إنسان ، والشهوة وشدة الانفعال والقدرة العملية ستصبح مرة أخرى المثل العليا للمعظمة في جنسنا والاتصار الملموس على قوى الظلام الظاهرة لكوننا ستبدو لنا مساوية لأية كمية من الثقافة الروحية السليمة وسيبقى السلوك العملي هو محك كل تربية جديرة بهذه التسمية .

إنه من المستحيل علينا أن نخفى حقيقة أن مركز الثقل في علم النفس المعاصر لأيامنا نحن قد انتقل من وظيفة العقل العقلية البحت — حيث وصفها أفلاطون وأرسطو ومن تبعهما من أصحاب المنهاج الكلاسيكي التقليدي في الفلسفة — الى ذلك الجانب العملي الذي طال أمد اغفاله . والمسئول الرئيسي عن ذلك هو نظرية التطور . فالإنسان — ولدنا الآن من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بذلك — قد تطور من أسلاف على أسفل سلم التدرج البشري حيث انعدم فيهم أو كاد التفكير المجرد — ان كان ثمة تفكير مطلقا فيها — وكانت عقولها تقتصر وظائفها على مجرد كونها أعضاء لملاءمة حركاتها للمؤثرات الواردة من البيئة لكي تتلافى مغبة الانقراض أو الفناء .

فالوعى يبدو لأول وهلة كما لو كان لا شيء سوى نوع من الاكتمال البيولوجي المضاف للكائن الحي — وهي إضافة لا فائدة منها ما لم تقض الى سلوك نافع ، بل ولا يمكن تفسيرها معزولة عن هذا الاعتبار : إن في أعماق طبيعتنا ما زالت تكمن الأسس البيولوجية لوعينا غير مستورة

وبلا نقصان — هنا توجد أحاسيسنا لكي تجذبنا أو تصدنا — وذكرياتنا لكي تحذرنا أو تشجعنا ، ومشاعرنا لكي تحرضنا ، وأفكارنا لكي تضبط سلوكنا وتحتجزه ، وذلك لكي تزدهر بصفة عامة ونطيل أيامنا على الأرض .
ومهما حملنا في بواطننا من بصيرة ميتافيزيقية تتجاوز حدودنا الدنيوية أو إدراك جبالى لا سبيل الى تطبيقه عمليا ، أو عاطفة خلقية — فقد تمد في هذا المنسوب مجرد جزء فحسب من الطفح الوظيفى العرضى الذى يصاحب بالضرورة عمل أية آلة معقدة التركيب .

لذلك سأطلب منكم — غير قاصد بذلك إغلاق المسألة النظرية — ولكن لأنه يبدو أنها وجهة النظر المواتية لكي نجلب أعظم النفع لكم كعلمين — أن تتبنوا معى في هذه المحاضرات المفهوم البيولوجى السابق ذكره على هذا النحو ، وأن تركزوا اهتمامكم الخاص في حقيقة أن الانسان — إما كان وأنى كان — هو أولا وقبل كل شيء كائن عملى قد وهب له عقله لكي يمينه على ملاءمة نفسه لحياة هذا العالم .

اتنا في دراستنا لكل المسائل يتعين علينا أن نبدأ بناحية واحدة عميقة من المسألة ثم نجردها كما لو كانت هى الجانب الوحيد في الموضوع ثم نصحح أنفسنا بالتدرج بأن نضيف تلك الجوانب الأخرى المعلقة التى تكمل القضية .

ولا أجد أقوى منى اعتقادا بأن ما تعرفه حواسنا على أنه « هذا العالم » ليس سوى جزء واحد من البيئة الكلية لمقلنا وموضوعه برمه .
ولكن لكونها الجزء الأولى والأعلى فهى الجزء الحتمى للباقي والذى بدونه لا تكون شيئا مذكورا .

فاذا ثبتتم من هذه الحقائق وفهتموها برسوخ ففي استطاعتكم أن تمضوا قدما وتصعيدا على الآفاق المليا آمنين مطمئنين .

وحيث إن الوقت الذى سنتضيه معا سيكون قصيرا فاننى أفضل أن أركز فى الأوليات والأساسيات بعد أن أكون كاملا — لذلك أفأثمدكم أن تعضوا بالنواجذ على أوجه النظر المفرطة فى البساطة . أما الأسباب التى تحدونى الى أن أعتبرها أساسية الى هذا الحد فمن السهل سردها :

أولا — عندئذ يصبح علم نفس الانسان والحيوان موصولا وأقل تكسيرا أو توقفا . إننى أعلم أن هذا السبب يبدو لبعضكم سببا غير مقبول أو جذاب ، ولكن هناك فريقا سيتقباه بقبول حسن .

ثانيا — إن عمل العقل يتكيف بعمل المخ ويمضى معه متوازيا . ولكن المخ — بالقدر الذى نفهمه — قد أعطى لنا للسلوك العملى .

فكل تيار يسرى فى داخله من الجلد ، أو العين ، أو الأذن ، فهو يخرج ثانية الى العضلات والغدد والأحشاء ويساعد على ملاءمة الكائن الحى للبيئة التى جاء التيار منها .

ولهذا فما يساعد على تعميم وتبسيط وجهة نظرنا أن نعتبر حياة المخ وحياة العقل ذواتى نوع واحد أساسى من الهدف .

ثالثا — وظائف العقل نفسها التى لا ترجع مباشرة الى البيئة المادية كالعواالم الأخلاقية المثالية ، والرؤى الجمالية ، والبصائر النافذة فى الحقيقة الخالدة ، والاتفاقات المنطقية المتخيلة — هذه كلها لا يمكن أن تصدر عن الفرد الانسانى ويستمر فيها الا اذا كان العقل الذى أتجها فيه قادرا أيضا على إنتاج منتجات أكثر نفعاً من الوجة العملية .

رابعا — إن المناشط « اللاعملية » التى لا لزوم لها هى نفسها أكثر إرتباطا بسلوكنا ووثيقة الصلة بملاءمتنا للبيئة أكثر بكثير مما تبدو لنا لأول وهلة .

لا توجد حقيقة — مهما تكن مجردة — يمكن إدراكها لا تؤثر فى عملنا الأرضى فى وقت ما .

وينبى أن تذكروا أنى عندما أتحدث عن العمل هنا فأنى أعنى العمل فى أوسع معانى الكلمة وأكثرها شمولاً . فبالعمل أقصد الكلام والكتابة ، و « نعم » و « لا » والميول نحو الأشياء ، والنأى بميىدا عنها ، والتصميمات الاتفعالية . وأنا أقصد كل تلك الأمور بالقياس الى المستقبل مثلما هى بالقياس الى الحاضر .

ففى أثناء حديثى الآن وإنصاتكم لى قد يبدو أنه لا وجود « لعمل » يتبع هذه العملية .

وربما تسمون ذلك عملية نظرية بحتة خالية من النتيجة العملية ، ولكن لا بد وأن يكون لها نتيجة عملية ؛ إذ لا يمكن أن يحدث ذلك دون أن تؤثر فى مسلككم ، ان لم يكن اليوم ففى يوم آخر بعيد فى المستقبل عندما تجيبون عن سؤال معين بطريقة مختلفة بسبب ما تفكرون فيه اليوم نتيجة لحديثى معكم .

ولن يقف الأمر عند هذا الحد فان حديثى سيدفع بفريق منكم الى مسالك جديدة من البحث ، وسيجدوهم الى قراءة معينة . وهذه الكتب سوف تطور رأيكم وتؤثر فيه ، إما لها وإما عليها .

وهذا الرأى سيجد بدوره طريقاً الى التبرير ، وسيلقى قددا فى الأوساط التى تعملون فيها ، وسيؤثر فى مكاتكم فى أعين قومكم ومن تعملون معهم أو لهم .

إننا لا نستطيع أن نتلافى مصيرنا — وهو مصير عملى — وحتى أكثر قوانا النظرية تسهم فى تشكيل هذا المصير العملى .

أرجو أن تكون هذه الأسباب القليلة قد مهدت الطريق لكي تتقبلوا اقتراحي ووجهة نظري .

فكعلمين — أعتقد باختصار — أن وجهة النظر هذه تمتد مفهومها كافيًا لكم لتبني الظواهر السيكولوجية الفنية التي ستوضع تحت أبصاركم لتفحصوها ، إذا نظرتم إليها من وجهة نظر علاقتها بمستقبل سلوك صاحبها . وعلى أية حال فهي نظرية كافية كمفهوم أول وكمفهوم أساسي . عليكم إذن أن تمددوا عملكم المهني كما لو كان يقوم أساسًا ويرتكز بالضرورة على تدريب الطالب على السلوك وعلى الأخذ بالسلوك — ليس بالمعنى الضيق لآداب السلوك ولكن بأوسع معاني السلوك الممكنة التي تشمل كل صنف ردود الأفعال المناسبة الممكنة حيال الظروف التي يجد فيها الطالب نفسه تلقاء تقلبات الحياة . وغالبًا ما يكون رد الفعل سلبًا .

فألمست وعدم الحركة من أهم واجباتنا في ملاقاتنا بعض الطوارئ .

العملية .

« اضبط نفسك ، واستعفف ، واكظم » .

ذلك ما يوصينا به الكتاب المقدس ، ولكن ذلك غالبًا ما يحتاج إلى مجهود عظيم من قوة الإرادة ، وإذا نظرنا إلى الأمر فسيولوجيًا وجدنا أنها وظيفة للمصعب مثلما هي أداء حركي في آن .